

عندما كانت القبيلة العربية في الجاهلية ، يجتاحها الوجد البطولي ، لا نجد من سبيل الى التعبير المباشر عن مجدها إلا في ملحمة شاعرها . وكما نرى فان اللفظين متقاربان بين (الوجد

## شعرنا القومي

### وربوان «العيون الظما والنور»

بقلم مطاع صفيك

ولذلك كانت وسيلة التعبير عن الوجد الاول ، الشعر . ولكن ليس كل شعر . بل الشعر الجاهلي في خصائصه العفوية عند معلمه الاوائل . انه شعر إنساني يقوله انسان ويلقيه بين جموع

من البشر ، فهو حي واقعي ملي بالحادثة والعاطفة والتلون المتطور الحصب . والشعر الثاني المعبر عن الوجد الثاني المصطنع شعر وهمي رمزي (بمعنى اللغز لا بمعنى الرمزية الحديثة) . ولانه سطحي فهو سرى ملغز . ويتفق ان يشعر بفقره ، ولا يكون هذا الشعور الا بواسطة نفس عربية شاعرة ، فيتحول الى الارض والى الغادة والى الحب والجمال والحمة ، كما فعل ابن عربي وابن الفارض . وبيننا تكون الغادة واسطة ومعبراً لله ، تصبح هي ذاتها غاية . وهذا دليل على عمق تجربة الوجد الاخر ، التي تحاول ان تخلص الانسان من ذاتيته واراضه .

فالبطولة العربية اذن كانت مجاورة للشعر . وعندما يفخر الشاعر الجاهلي بمناقب قومه فهو إما انه يعبر عن عمل واقعي موجود يلتزمه قومه واخلاقية خاصة يتحلون بها . واما انه يبحث على هذا العمل وهذه الاخلاقية قبل ان يتحققا تماماً . وفي كلنا الحالتين مجاذي الشعر النزعة . والنزعة في حقيقتها واقع موجود وغير موجود معاً ، لانه تطور وصيرورة . وكلمة صيرورة اصح في هذا المجال لانها اوسع من مفهوم التطور الذي قد يكون حالة من حالاتها فحسب . وهذا ما يعبر عنه قول الاستاذ ميشيل عقلق في مقدمته للربوان : « الفن إما ان يسبق العمل اكبشر به وحافز عليه ، واما ان يأتي بعده يرجع صدها ويصور الحنين اليه »

نخلص مما تقدم الى اننا اذا كنا نربط بين مصير الفن ومصير البطولة الانسانية في التجربة العربية ، فلا يعني هذا ان الشاعر البطل يقف دائماً على ذروة انتصار وتفوق ونبالة ، بل قد يقع احياناً في حضيض انكسار وانحطاط ومذلة . ففي المرة الاولى يقول الشعر كم ، وفي المرة الثانية يقول الشعر ايضاً . غير ان شعر الذروة واقع كله وشعور بملكية هذا الواقع ، بينما شعر الحضيض واقع عارض ، وصيرورة معكوسة وشعور بالعدم

و (المجد) و كلمه ثالثة غنية غنى مطلقاً هي (الوجود) . وعندما تتقارب الالفاظ العربية على لسان الجاهلي ، فهي اللغة ، تتقارب ايضاً معانيها ، وتوشك النفس ان توحد بينها لوحدة نزعتها ووضوح احساسها بالدلالة . ونحن لا نلقى هذه الدلالة في التفسيرات التجريدية او النحوية ، فالحق ان مضمونها كامن في الحادثة العربية . والحادثة العربية موجودة دائماً وغنية خصبة بحيث يمكن ان تكون ركاز الكل التبريرات العقلية ، التي تقام فوقها . وحينما اقول حادثة عربية ، لا أعني بها شيئاً آخر ، غير الواقع العربي الاصيل الناصع ، ولعل جنته هي الجاهلية ، ووثبة الاسلام العربي ، قبل ان يتشوه بالشعبوية الهجينة . يقوم الترابط القومي بين هذه الالفاظ الثلاثة ( وجد

مجد - وجود) من وجهة الحادثة العربية . فان ذروتها تتحقق عندما تلتحم هذه الالفاظ الثلاثة . ولا يكون التحامها الا في العمل البطولي ان الانسان مدعو دائماً لان يكون البطل . ولكن الانسان العربي وحده هو الذي لا يوجد الا وهو بطل . والبطولة على الطريقة العربية نزعة خارقة لتجسيد المثل الاعلى ، الذي لا يعلم على الواقع الا بالقدر الذي يمكن لنفس البطل ان يكتشفه فيه ، ولا يكتشفه الا وهو على هذه الحالة العظيمة من التأله ضمن الشروط الانسانية ، من الوجد الصوفي الحي . هذا الوجد يناقض تمام المناقضة صوفية عصر الانحطاط . فهو محاولة رائعة لتر كيز الانسان حول معناه الواقعي ، بينما الصوفية الشوواء تبديد للانسان في الفراغ ، واغراء سخيف بالموت الفقير ، ومعرفة مصطنعة للوجود الضائع . في الوجد الاصيل ينبثق الاله الحقيقي من اعماق الانسان ، من اصوله . وفي الوجد المزيف يهبط الاله على الانسان من اعلى ويمحوه بظله . فالاله في الاول حياة داخلية مجسدة ، وهو في الثاني فكرة مجردة خارجية غريبة .

الا من الحقد السلبي ، والحنين الايجابي الى الذروة . ففي الشعرين اذن ذروة بادية . واذا قارنا بين قيمة الاثنين بدا لنا ان الثاني اقوى حقيقة واعنف ارادة واعظم رسالة . ان الشعر عند مالك الذروة قد يمثل جزءاً من وظيفة الترف فيصبح اشبه شيء بالفناء ، والفناء انفصال وحلم .

اما الدم والنار والعاصفة والحقد والدمع الملتاع .. كل هذه المقولات ، الحية فانها تفهم شعر هذا الذي كانت له ذروة واضاعها ! فهو الان كلمة واحدة : انه يريد . وفي الارادة الملتاعة ، الارادة الحزينة تتحقق اعظم قصص الانسان !

ان الارادة تعني الولادة . والفنان وحده هو الذي يقدر قيمة الجنين الذي لم يولد بعد والوليد الذي تتداوله المتاحف . لكم يشقى ويتوجد الاول ، ويضجر ويسأم من الثاني !

فشعر الفخر ليس من نافلة القول ، ولا صنوه شعر الرثاء . ان الاثنين يمثلان طرفي البطولة . وليس اروع من الشعر عند ما تكون مبالغاته حقيقية ، اي ان لها جذوراً في الواقع . والشعر العربي في صميمه ليس مطلقاً تصويراً سلبياً للحياة ، انه يشارك في هذه الحياة ، بل انه مؤثر في حوادثها ، فاعل في حر كبتها ، فهو عندما يبرز صفة او عملاً في الفخر يخلقها من جديد ويضعها في مستواها الفني الخالد . وعند ما يعبر عن نزعة يساعد في نزوعها نفسه . والرثاء نوع من الاحساح على النقيض لتحقيق النقيض الآخر . وهكذا يكون الشعر العربي والحياة العربية من ورائه تتبع في صميمها قانون الديالكتيك الحقيقي المبدع .

ومن خلال هذا التصميم الشامل للشعر العربي الاصيل يتاح لنا الآن ان نلج الى مضمونه الجديد الذي يحتاجه بعث حياتنا القومية اليوم .

من الواضح اننا لا يمكن ان نقبل ان يكون شعرنا اليوم خاضعاً للتصنيف الجاهلي القديم ، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون . فكما اننا نؤمن بان زمن الاجترار قد بار وان اشكال الحياة العربية قد اندرست تماماً ، فلا بد اذن من ان نعتقد بان الشعر القديم ، وهو اعظم تلك الاشكال ، ليس لنا ان نجتره ولا ان نمثل ظروفه ، ولا ان نضعه في غير موضعه . فانه مع ايماننا ان التاريخ تبدل ، وان لكل مرحلة منه قيمتها وحاجاتها ، وبشرها الذين يعيشون ظروفهم

الخاصة بهم ، مع هذا فلا بد لنا من ان نبرز خصوصية التطور في التاريخ العربي لا سيما فيما يتعلق بأسلوب التعبير عن هذا التاريخ وهو اللغة العربية نفسها .

صحيح ان الاحداث تتغير ؛ ولكن هذه الاحداث لا تتحقق من تلقاء ذاتها ، وفي الفراغ ؛ انها مرتبطة باناس يلتزمونها ، وهؤلاء الاناس بدورهم ينتمون الى امة وحضارة معينة . والحضارة شخصية ، وكل ما يصدر عنها من اعمال انما تنحل في آخر الامر ، في معنى هذه الحضارة . والمعنى شيء بديء اصيل يكون دفعة واحدة لا يتطور ولا يتغير . كما لا تتغير هوية الشخصية مهما صدر عنها من اعمال وتصرفات متبدلة ، انها كلها تلزم صاحبها وتتبعه عن شخصية واحدة . هذا بالنسبة الى جميع الامم والحضارات . فما بالنسبة بالنسبة للامة العربية التي تصل فيها الاصاله الى حد المعجزة ، الى حد البداية الميتافيزيقية !؟

وليس هذا محل البرهنة على اصالة الامة العربية . غير اننا نريد من كل هذا ان نبلغ الى ان اللغة العربية ، التي هي فن الامة العربية الاول ، ومجال فلسفتها ونظرتها الى الوجود ومحل قيم القومية العربية ، ونوع الاخلاقية التي تلزم ابناءها بها ، هذه اللغة في اصولها ثابتة لا تتغير ، لانها تمثل معاني الامة ونظرتها البديئة الى الحياة والوجود بشكل عام ان اللفظة فيها نظرة حية ومطلقة في الوقت نفسه . وكل لفظة تقابل حالة وجودية حدس بها مبدعها في ظرف حياتي معين انتقل منه الى معناه . فليست اللغة العربية اذن تركيبية . والاشتقاق فيها لا يكون مصطنعاً او نحوياً . انه نوع من القدرة المبدعة ا واذا عرفنا ان فن اللغة العربية والحياة العربية الاصلية هو الشعر ، ادركنا ان الشعر بالتالي لا بد ان تكون له جذور ثابتة ، كما ان له حياة متبدلة متغيرة ضمن تفتح معناه البديء فيما ينتجه شعراء العربية خلال العصور المتوالية .

فشعرنا اليوم ، ان كان اصيلاً مخلصاً ، لا بد ان يشف عن قيمته ، باعتباره هذه الحياة العربية المثلى عندما تنقلب فناً . ونحن الان نعيش هذا المثل من قاعدته ، من اسفله ، من حضيض الذروة التي فقدناها . فالمرثية الجاهلية هي بابها الوحيد ولكن شرط ان تشبع بتفاصيل المأساة الجديدة .

يرجع في هذا البحث الى مؤلفات فيلسوف العروبة من خلال لغتها الاستاذ زكي الارسوزي

ان المراثية تعني ( الفقد )، والفقد يتناول الانسان والارض والقيمة الاجتماعية والجمالية . فوضعنا اليوم يتحدد في جميع مستويات الحياة ، من وجهة نظر الفقد هذه . وفقدنا غني : فنحن دون تاريخ حاضر لاننا دون ارادة حرة ، والحرية هي خالقة التاريخ وخاصة التاريخ العربي . ودون شخصية لاننا مفككون في الارض والنفس ، ودون كرامة ، لاننا نعيش في أحط شروط مادية عاشها العربي طيلة تاريخه . وقد تجسم كل ذلك في هذه البؤرة المحرقة الخيفة التي يجتمع فيها موتنا وبعثنا ، عبوديتنا وحرقتنا ، مدلتنا وكرامتنا ... انها فلسطين : فقدنا الاكبر .

شعرنا إذن مراثية طويلة ، والمراثية تتغذى من جميع تناقضات المأساة الحاضرة . فمن هذه النظرة ، من هذا المقياس وحده ، يمكن ان نقيم كل شعر مبدع جديد على انه اصيل او مصطنع . والاصالة في الحقيقة هي حكم الوجود على كل انتاج عربي ، يسبق حكم القيمة ، وكل تقدير فني تكتيكي آخر . وهو مقياسنا الوحيد كعرب احسن من نتجت لديهم العفوية والاصالة . وشعراء قلة من انبثقت منهم فنية الشعر العربي في شروط المأساة الحاضرة . واحسب ان اعظمهم من الشباب اليوم هو سليمان العيسى في كل ما قدمه للعروبة من نضال ، ولفن العروبة من شعر أصيل ، يشكل بذاته قوة جبارة من قوى الطليعة المناضلة اليوم . ولسليمان حديث مستقل ليس هنا الان بحاله ولكن القيم الشعرية التي يتعجب من خلالها ابداعه ، قيم تصلح لان تكون مقياساً عاماً على كل شعر آخر من هذه النوعية .

ان هذه القيم تتابع حركة النفس العربية الواعية وهي منمورة في خضم الاحداث المتتالية على عالمنا العربي . فهي سلبية كلها ، ايجابية كلها . سلبية لانها تقوم على الرفض ، رفض واقع برمته . ايجابية لانها تنبأ بالواقع الافضل نبوءة فاعلة تتكشف للملمهين ، فتعمل منذ ان تتكشف لاصحابها على استدعاء وبناء هذا الواقع الجديد ، وكل هذا من خلال موقف

وجودي دائم يلتزمه الشاعر عن عفوية ووعي .  
ان سليمان يؤدي الى شاب آخر هو يوسف الخطيب في ( العيون الظماء للنور ) .

وإذا كنا نعرف سليمان من خلال انتاج غزير متلاحق في دواوين عدة ونعرفه واحداً من طلائع جيلنا العربي ، الذي اختلط لديه النضال بالفن ، تماماً على طريقة الشاعرية الجاهلية ، عندما تلتحم الحياة بالفن ، لتجعل من أمة اشبه شيء بانتاج عبقرى خارق مستمر ، اذا كنا نعرف سليمان ، فاننا نعرف الى يوسف الخطيب من خلال الشروط نفسها التي يولد فيها فنانونا ومنهم سليمان . فسليمان سرقت قريته وطفولته وعروبته ارضه في اسكندرون ( اول سلب في تاريخنا الحديث ) . ويوسف سلب منه ما سلب من كل هذا الجيل : فلسطين . فكان العار ، وشباب يأبى العار ، وكان الحقد ، وعربي يرفض الحقد ، لان الحقد للجبنة الزاحفين ، وهو شجاع فارس يشعر بعنفوان جبهته . ولكم يذكر الجبهة كما يذكر الذروة التي كان ينزلق عليها نور الفجر ، ولكن الغيوم السوداء حالت دون ان يكون هناك فجر في الخارج ، ولا ان تكون هناك جبهة تعكس الضياء ، رغم ان الفجر اصبح له مشرق انساني فردي ، من قلب الشاعر .

ان ( العيون الظماء للنور ) تضع المشكلة العربية وضعاً شاعرياً عفويّاً ، ملؤه الاحساس والعنف والتجسيم لخطوط المشكلة كما يجاها عربي ينفعل بالاحداث دون ان يمنعه هذا الانفعال عن الانفصال عنها ، وانارتها ومحاوله قيادتها .. هكذا كما كان يفعل النبي ، عند ما يسمى الحق فهو يوجد .

والواقع انه ان يكن لهذه المرحلة من تاريخنا شعر ، فهو هذا الشعر الذي يجعل به سليمان العيسى واليوم يوسف الخطيب .

فال موضوعات الشعرية واحدة متقاربة ، تنبع كلها عن المراثية ، بالمعنى الذين حددناه سابقاً . غير ان شاعرنا الخطيب ، بقدر ما يتحسس بالسكون ، السكون بعد الهزيمة ، باليتامى بنجم اللاجئين ، بذكريات الارض والدار والحبيبة



سليمان العيسى



يوسف الخطيب

# صِرَاع

للشاعرة عزيزة هارون

وخلفي نعشي وعيد حزين كئيب  
يسائل ابن الرفاق وابن الصحاب وابن الحبيب  
ومن ذا يعيد الي الرجاء بان الحياة جميله  
وقلبي من كل زهر ونفسي عليه  
وتهتف بي ثورة طاغية أفلسي شكاتك يا جانيه  
تموتين كالزهر في الآنيه  
فيصرخ قلبي من الهاويه اريد الحياة ولو ثانيه  
وتخلق بي قوة للدفاع ويبدو لعيني لمع شعاع  
وانفصي عني هباء العدم لأحيا بكل وجودي  
وتنحل بعد انطواء الظلم جميع قيودي

عزيزة

دمشق

وكيف أموت وهل تنتهي حكايات عمري  
وزهري يفوح بعطري وكأسي نشوى ببحري

\*\*\*

أموت وأحلام قلبي تغني وتلتاع بعد التمني  
وتقني بخيبة ظني

وتهتف بي ثورة جاحه لماذا تموتين قبل الأوان  
فأسأل كيف يعيش الغريب وكيف أطيق صراع الزمان  
وتفقت كل المنى من يدي ويخضل جفن الزهور علي

\*\*\*

أموت وقبري هناك يضم زهوري  
فأرهب فيه مصيري  
ويصرخ قلبي أريد البقاء الا من شعاع يعيد الرجاء

ان يكون في القصيدة التي نتذوق ونسمع او نقرأ . هو في  
استجابتنا العميقة له .

عندما طالعت ديوان يوسف كانت تشيرني ايقاعات الاوزان  
الضخمة التي انتظمت فيها الالفاظ بسهولة وبروز معاً .  
وصورة باكية تدفعني الى اخرى منتفضة تجحد الدمعة . وصورة  
قاسية الى اخرى عطوف رؤوم على النفس الانسانية ان تقبلها  
القسوة والحشونة . ومن هممة زلزال وقصفة بركان الى نغم  
النأي وشحوب المساء ، وذلك الحزن الملائكي الغني الذي  
يغلف روح المبدع .

وكل هذا من خلال حماس القارئ ، وانسيابه مع الشعر  
في لهفة قارئ الديوان في ساعه واحده متوترة ، ينبىء عن ان  
الاستجابة لديه عنيفة مخلصة متعاطفة مع كل ما يريد الشاعر  
حتى ليصبح هو الثورة والمارد والجبار واللاجي ، وكل  
النماذج الانسانية التي يعرضها هذا الديوان . وهي نماذج الشاب  
العربي اليوم إذ يشعر انه مسؤول ومجرم وطاره . نحس من  
خلال هذه العاطفية المجلجلة ان كل العالم العفن ، العالم العربي ،  
الاطار الحديدي لعلاقات الانبعاث ، كل هذا ينهار ، وان  
القيم الثورية هي وحدها اليوم التي تصنع شباب الطليعة  
وجيل الانبعاث .

فانه يجتمع في نفسه قدرة البركان على قذف كل الركام الزائف  
حول ذروته . وهنا يضع الشاعر نفسه -- تماماً كما يفعل شاعرنا  
الجاهلي -- موضع القدر المسير للامة :

ومشيئي قدرد على اقدامه تسمح الايام والاقدار  
وقرار هذا القدر قرار للامة كلها من خلال وجدانها :  
سأعود في الصبح الندي لموطني وغداً يرف علي جبيني الغار  
فالشاعر في كل هذا الديوان ليست مهمته مصورة . ان  
الفن هنا ملتحم تماماً بالحداء ، هذا الايقاع الذي هو صدى  
لحركة القافلة وموجه لها وقائد في نفس الوقت . وتلك انبل  
مهمة للشعر العربي . وذلك هو الالتزام الحقيقي الذي عرفه  
العرب ، منذ جاهليتهم ، في فنهم . ونحن نلج فيه كل صدق  
العفوية والبراءة والوعي الصحيح .

والقصيدة القومية معرضة للاسفاف والاصطناع ، ان لم يفذهها  
دائماً صدق الموقف الطبيعي للشاعر ، موقف قريب ابدأ من  
وجدان الامة ، فهي لا بد لها ان تجمع الفخر والرثاء وذكري  
الاجداد والتأكيد على البعث . ولعل الصور المعبرة عن كل هذه  
الموضوعات تكاد تتشابه لدى اكثر الشعراء القوميين الاصيلين  
والمزيفين . يبقى ان المقياس الذي تضعه في يدنا فنية شعرنا  
مقياس واضح ثابت لا يتزعزع وهو يكمن في نفوسنا نحن قبل

صدر حديثاً

## استعمار وكفاح

بقلم

احمد محمد جمال

- عرض ونقد للسياسة الدولية الحديثة في الشرق والغرب .
- اجراً كتاب عربي يتحدث بصراحة مدوية عن خيبة هيئة الامم المتحدة وكسل جامعة الدول العربية .
- ويعتبر معجماً سياسياً حديثاً لاشتماله على تاريخ احداث العالم شرقه وغربه ...

كتاب يجب ان يقرأ

الثن ليرتان

توزيع المكتب التجاري

ولهذا لا يمكن لمثل هذا الديوان - وكل ديوان قومي ان يُقرأ قراءة متأملة صامتة ، بل تلك القراءة المجلجلة الهادرة من اعماق الفرد الى اعماق الجماعة . فالصورة الطبيعية التي يعرق فيها متذوق الشعر القومي هي ان الشاعر على ذروة والامة من حوله يتحدثها عنها ، يغنيها غناءها ، يبرز وجودها . في القصيدة القومية ، الكلام والعمل شيء واحد . النغم والحركة شيء واحد . اليد التي تهتز مهددة بالشعر هي نفسها حاملة السيف .

شعرنا القومي يضعنا على ابواب المعركة دائماً ، فهو للمعركة وفي المعركة وبعد المعركة ، ولن يفهم قط بدونها . وهذا هو مقياس اصالة هذا الديوان وكل ديوان على شاكلته . إن التحام الشاعر بالامة ذلك الالتحام الرحماني ، لا يعرفه غير الفن العربي في اللغة العربية . فالفردية فيه جماعية . والمطلق فيه هو قدرته على المد ، المد الى اقصى نفس ليصلها ينبوعها ويربطها بقدر شعبها . ولذلك كان ديوان يوسف الخطيب يتكلم بفلسفة الامة الواحدة ليس فقط في المكان بل في مطلق الزمان : الازل والابد معاً .

والحرية والكرامة نعمان أصيلان لكل قصيدة . ولعربي انهما كيان الانسان العربي . واعل اروغ مرثية للكرامة العربية المهذورة بالاستعباد ، واروغ اذكاه وبعث لها ، قرأته في قصيدتين : الاولى لسليمان عيسى ( الارض التي وزعها المذباغ ) والثانية ليوسف الخطيب ( العيون الظماء للنور ) وهي التي فازت بالجائزة الاولى في مسابقة الآداب الاخيرة عن جدارة - هنا الحزن والمذلة وصور الهوان كلها في حشر فني لاهب ، يتبع حركة حقودة متشفية ، تسرد جرائم الاقطاع واحدة تلو الاخرى ، في الحاح جبار لاذع . ثم لا تلبث الغضبة ان تنفجر ، والثورة ان تندلع . ونصل الملحنة اوجها :

واذا نفخة من البعث في الصور فتهتز في الرحاب القبور  
فنّ هذا الديوان هو الاخلاص والحقيقة ، وشاعريته هي العروبة الثائرة الواعية . فالرصانة في الوزن والقافية مع تنوع طبيعي فيها والقوة في الالفاظ واندماجها في نبرات التفعيلات وحشد الصور الملونة وتأجيج العواطف الرائعة وراء كل حرف ... هذا هو باكورة اعمال شاعرنا الشاب : العيون الظماء للنور . وما اروعه من امم وعنوان لفاتحة ديوان وفاتحة أمة ..

مطاع صفدي

دمشق